فهمُ علماءِ الإسلام للظاهرة اللغوية وتوظيفُهم إياه في دراساتهم

عزّ الدّين بلقاسم كِبْسي(*)

أستاذ مبرّز، وباحث من تونس.

مقدمة

اسْتوَت اللسانيات (The Linguistic/Le Linguistique)[1] منذ نهاية القرن العشرين علْمًا قائمًا بذاته، له أسسُهُ وقواعدُه وقوانينُه ومجالاتُه. وتكاد كل العلوم تمتُّ إلى اللغة بسبب بْدءًا من علم تحليل الخطاب إلى إلى علم التّأويل (الهرمنيوطيقا) إلى جميع فروع العلوم الإنسانية (الفلسفة، علم النّفس، علم الاجتماع...) لكنَّ المؤَكَّدَ أنّ هذا العلمَ لم ينشَأْ من فراغٍ ولمْ ينبثق من عَدَم ولم يكُن مجرّدَ طفْرةٍ طفتْ على السّطْحِ من دون سابق تجارب تسنده وتؤازره وتعضده، مهَّدتْ له الطريقَ حتّى استوى علْمًا قائمًا على سُوقِه.

وقدْ كان لعلماء الإسلام مشاركةٌ فعَّالةٌ في انبثاق هذا العلم وبلورته لاتِّصاله بالمصدر الأوّل في الإسلام، ونعني بذلك قطْعًا القرآنَ الكريمَ. ونحن إذ نكتبُ عن مساهمة العلماء المسلمين في مثل هذه الدّراسات فإنّنا لا نبغي من وراء ذلك إبداء تلك النظرة المدحية التقديسية التي تتغنَّى بأنّ أسْلافنا كانت لهم اليدُ الطُّولى في جميع الميادين الحياتية بعامّة والعلمية بخاصّة، وإنما غايتُنا تتمثّل بإبراز ما لهمْ حتّى نتّخِذها لبناتٍ نروم استغلالها ـ كما نستغلُّ ما وصلتْ إليه البحوثُ والدّراساتُ الحديثةُ ـ لنقيمَ صرْحَ مستقْبلنا على أُسسٍ صلبةٍ ثابتةٍ من دون أنْ نقْطعَ صلتنا بماضينا وهويتنا، ونساهمَ مثل بقية الشعوب بدورنا في النُّهوض بالحضارة الإنسانية كما فعل أسلافنا تحت ظِلِّ رايةِ الإسلام، فلا نبقى عالةً على الآخرين ونُضْحي مجرّدَ مستهلكين لما يروّجُ من معارفَ.

(*) البريد الإلكتروني: belgacem.ezed@gmail.com

(1) تُرْجِمت العبارة في اللغة العربية ترجمات عدّة منها: الألْسُنية، اللسانيات، اللسْنيات، علم اللغة، علم اللسان، فقه اللغة...

وليست اللغةُ من القوالبِ الجامدةِ المُغْلَقَةِ، بل إنّها تسايرُ الحياةَ في تغيُّرها وتجدُّدها لذلك نقِف على استحْداث كلمات جديدةٍ عند كلِّ اختراعٍ جديدٍ أو حدوث ظاهرةٍ لم يكُنْ لنا بها عهْدٌ، فاللغة إذَنْ كائنٌ حيٌّ لا يستقِرُّ على حالٍ واحدةٍ بل تدور مع الحياة. ولا تقْتصِر الوظيفةُ اللغويةُ على كونِها وظيفةً عضويةً (أصْوات وحروف تُنْطَقُ ولها مخارجُ محدَّدة) بل هي كذلك وظيفةٌ عقليةٌ وحضاريةٌ[2]، حتّى إنّ بعض الدّارسين عدَّ ظهور اللغة عند الإنسان بمثابة فجْرِ الحضارة الإنسانية، فلم يصبح الإنسانُ سيِّدَ العالمِ إلَّا لأنّه قد استطاعَ أنْ يُقيمَ بينه وبين العالم شبكةً من الكلمات تمثِّلُ «وسائطَ» (Médiations/Mediations)، فاللغة هي التي أتاحت للإنسان تحديدَ الأشياء وتوضيحَ الأفكار التي تخالجه عن تلك الأشياءِ. وتلك لَعَمْري ميزاتُ الإنسان عن سائر الكائنات، لأنّ اللغةَ مرتبطةٌ وثيقَ الاتباط بالعقل والتفكير.

أولًا: دوافع التفكير في الظاهرة اللغوية في الحضارة الإسلامية

تميَّزت الحضارةُ العربيةُ الإسلاميةُ بسمةٍ فارقةٍ تتمثَّلُ بأنَّها أوْلَت اللغةَ أهميةً بارزةً وأعطتها القيمة المركزيةَ. وهي في الحقيقة ظاهرة موغلة في التّاريخ ضاربة في القِدَم[3]، غذّاها الإسلامُ عندما نزلَ مساوِقًا لهذه النّزْعةِ وذلك بإعْطائه الكلمةَ/اللفظَ[4] المكانةَ الرئيسيةَ وهذا ما استقرَّتْ عليه آراءُ المفكِّرين منذ فجْر الحضارة الإسلامية وفي مقدّمتهم الجاحظُ[5] (159 ـ 255 هـ) في

---

(2) اللغة هي هوية الشعب والعلامة الفارقة التي تميِّزه عن غيره وتعكس مدى تطوّره وتكشف عن جوانب حياتية كثيرةٍ من خلالها نحكم على مدى تطوّرهِ وما بلغه من رُقِيٍّ، لأنّها ببساطةٍ تعكِسُ فكْرَ الشّعْب وثقافته ودرجة وعْيِه.

(3) احتفال العرب في الجاهلية بالشعر والخطابة وتبويئهم الشعراءَ والخطباءَ مكانةً سامقةً في مجلس القبيلة مع عِلْية القوم، وكانوا إذا نبغ فيهم شاعرٌ أقاموا الاحتفالات وجاءت القبائل لتهنئتهم. نتذكَّر المكانةَ البارزة التي حظيتْ بها المعلقات حتّى علقوها بأستار الكعبة تخليدًا لها وتعظيمًا لقدْرِها.

(4) الكلمةُ: الكَلْمُ التأثيرُ المُدْرَكُ بإحدى الحاسّتيْنِ، فالكلام يُدْرَكُ بحاسّة السّمع والكلْم مدركٌ بحاسّة البصر «والكَلِمُ (ج. كلمة) الأصيلُ كأرْعَب (كأوسع) الكَلْم (جراحات)». فالكلام يقع في الألفاظ المنظومة وعلى المعاني التي تحتها مجموعةٌ (الإصبهاني، **المفردات في غَريب القرآن**).

الكلمة هو اللفظُ الموضوعُ لمعنى مفرد. كلمة الحضرة إشارة إلى قوله «**كُنْ**» (البقرة: 117) فهي صورة الإرادة الكلية (الجرجاني، **التعريفات**).

كلم: القرآن كلام الله وكلماته وكلمته، وكلامه لا يُحَدُّ ولا يُعَدُّ، وهو غيرُ مخلوقٍ. وفي الحديث «أعوذ بكلمات الله التّامّات» قيل هي القرآن ...ابن سيدة الكلام القول وقيل الكلام ما كان مكتفيًا بنفْسِه، وهو الجزء من الجملة (ابن منظور، **لسان العرب**).

(5) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (159 ـ 255 هـ)، إمام من أئمّة الأدب العربي في العصر العبّاسي. ولد في البصرة، وكان معتزليًّا. تميَّزَ بغزارة إنتاجه وبأُسلوبٍ في الكتابة فريدٍ، إذ كان يزاوج في كتابته بين الجِدّ والهزل بما يُسْبِغه عليه من روح الدّعابة، حتّى لا يُثْقِل على القارئ. ألَّف **كتاب الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والرسائل** ...

رسائله والقاضي عبد الجبَّار (320؟ ـ 415 هـ)[6] الذي قال: «... وعلى هذا الوجْه أجْرى الله تعالى عادةَ الرّسولِ (ص) في أنْ خصَّه بالقرآن الذي هو مُشَاكِلٌ لصناعتهم وطريقتهم غيرُ خارج عن الأمْرِ الذي يَشتدُّ به اهتمامُهمْ ويَقْوَى له افتخارُهم، وتَظْهَرُ فضائلُهم ومحاسنُهم لكيْ تقِلَّ الشُّبَهُ للْعَارِفِ المقدَّمِ فيعرِفَ اضطرارَ المباينة .. ولأنّ وجهَ الإعجازِ فيه لا يتغيَّرُ كما أنّ شريعتَهُ لا تزُول على الأوقاتِ»[7].

وبعْد أنْ تقدَّمت الفتوحاتُ الإسلاميةُ، وتَوَسَّعتْ رقعةُ الوطنِ الإسلاميِّ واختلطت الأجْناسُ المختلفةُ الوافدةُ مع العربِ متَّحِدةً في الدِّين متباينةً في اللغةِ، إذَّاكَ خُشِيَ على العربيةِ لغةِ القرْآنِ من الفسادِ واللحْنِ[8] الذي يعْني صَرْفَ الكلامِ عن سَنَنِه (نهجه ـ طريقته) الجاري عليْه إمَّا بإزالة الإعْرابِ أو التصحيفِ وهو مذمومٌ، وذلك الأكْثُرُ استعمالًا وهو ما سيؤدِّي ـ إنْ تواصلَ الأمرُ ـ إلى استِحالةِ فهْمِ القرآن الذي نزل بلغة عربيِّة فصيحة: (**بلِسانٍ عربيٍّ مبينٍ**)[9]. لذلك اتَّجهتْ جهودُ اللغويين إلى ضبْطِ اللغة العربية وتقْنينِها في منظوماتٍ حتّى يسْهُل على المتعلِّمينَ أخْذُها والإلمامُ بها؛ «فكان من ذلك جميعُ تراثهم اللغويِّ في النّحْو والصّرْفِ والأصواتِ والبلاغة والعَروض... ولكنّهمْ تطرّقوا إلى التفكيرِ المجرّد في الكلامِ منْ حيْثُ هو كلامٌ أيْ في الظاهرة اللغوية كونيًّا»[10]. فكما جاء جليًّا في هذا الشاهد لم يكتفُوا بوضعِ نظام اللغة بضبط حدودِها وحصْرِ قواعدِها، بل تجاوزوا ذلك إلى الحديث عن حدِّ اللغة فقال ابن الحاجب[11] في **مختصره**:

---

(6) القاضي عبد الجبَّار (320؟ ـ 415هـ) أبو الحسن الأُسْدَبادي المعتزلي. لُقِّبَ بشيخ القضاةِ في عصره وكان رأسَ المعتزلة في زمانه من أشهر كتبه موسوعتُهُ **المغني في أبواب التّوحيد والعدل** وهو يضمُّ مباحثَ جليلةً كثيرة في التّوحيد والفقه.

(7) القاضي أبو الحسن عبد الجبّار، **المغني في أبواب التّوْحيد والعدْل**، ج 16: **إعجاز القرآن**، قوّم نصه أمين الخولي (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1960)، ص 205 ـ 206. [انظر كذلك: عبد الكريم الخطيب، **إعجاز القرآن: الإعجاز في دراسات السّابقين**، ط 2 (بيروت: دار المعرفة، 1975) ص 234].

(8) جاء في **المقدّمة** لابن خلدون: «فلمّا جاء الإسلامُ وفارقوا الحجازَ لطلبِ المُلْك الذي كان في أيدي الأمم والدّول وخالطوا العجمَ، تغيَّرتْ تلك المَلَكةُ بما أُلْقى عليها السّمع من المخالفات التي للمتعرِّبين من العجم. والسّمْعُ أبو الملكات اللسانية، ففسدتْ بما أُلْقِيَ إليها ممَّا يُغايرها لجنوحِها إليه باعتياد السّمع. وخَشِيَ أهلُ العلوم منهم أنْ تفسُدَ تلك الملكةُ رأْسًا ويطول العهدُ بها، فينغلقَ القرآنُ والحديثُ على المَفْهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانينَ لتلك الملَكة مُطَّردةً شبه الكلِّيات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويُلْحِقون الأشباه بالأشباه» (ص 1056 ـ 1057).

(9) **القرآن الكريم**، «سورة الشعراء،» الآية 195.

(10) عبد السلام المسدّي، **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، ط 2 (تونس؛ ليبيا: الدّار العربية للكتاب، 1986)، ص 24.

(11) عثمان بن عمر بن أبي بكر (ت 1249 م) نحويٌّ مصريٌّ من أئمّة اللغويين وفقيه مالكيٌّ من كتبه **الكافية** في النّحو و**الشافية** في الصّرْف.

«حدُّ اللغة كلُّ لفظٍ وُضِع لمعنى»[12] وقال الأسْنوي[13] في **شرح منهاج الأصول**: «اللغاتُ عبارةٌ عن الألفاظ الموضوعة للمعاني»[14]، وخاضوا في بيان واضع اللغة: «أتوْقِيفٌ هي ووحْيٌ، أمْ اصطلاحٌ وتواطُؤٌ»[15] وغيرها من المسائل التجريدية النَّظرية حتّى بلغوا أدقّ الجزئيات وأجلَّ الموضوعاتِ، وتعدَّوْا كلَّ ذلك إلى ما هو أهمَّ: «ولئنْ ورد ذلك جُزْئيًّا في مُنْعطفاتِ علوم اللغة العربية وخاصّةً عندما فلسفُوا منشَأَ نظامها وقواعدَها فوضعوا علم أصول النحو، فإنهم دوّنوا ذلك خصوصًا في جداولِ تراثهم الآخر غير اللغوي أساسًا»[16]، وهذا يفسِّرُ بكلِّ جلاءٍ أنَّ العربَ لم يتَّجهوا في أبحاثِهِمْ إلى: «علمٍ تقنيٍّ منطلقُه وغايتهُ نظام اللغة العربية في حدِّ ذاتها لا غير»[17] كما ذهب إلى ذلك بعض الدّارسين ـ جهلًا أو تجاهُلًا ـ أو أنهم لم يجَشِّموا أنفسهم عناءَ البحث المعمَّق ومشاقَّه، ذلك أنّ اهتمامَ علماء الإسلام لم ينصبَّ إلى معرفة قواعد النحو والصّرف والبلاغة وعلم العروض فحسب... بل تجاوزَ اهتمامُهم ذلك إلى تقصِّي الفلسفة التي تصدر عنها اللغة فلم يتحدَّثوا مثلًا عن ظاهرة الإعراب بل تجاوزوها إلى الحديث عن: «سرّ صناعة الإعراب»[18]. لكنَّ المعضلةَ أنّ تفكيرَهم في الظَّاهرة اللغوية لم يَرِدْ في أبحاثٍ متخصّصةٍ مستقلَّةٍ وكتبٍ جامعة ممَّا يَسهُل علينا أخذُهُ وتتبُّعُه، بل ورد مبثوثًا وموزَّعًا في بحوثٍ بعيدة كلَّ البُعْدِ عن البحوث اللغوية ـ في أغلب الأحيان ـ مثل الموسوعات والرّسائل الكلامية والفلسفية وكتب التفسير ... فأيْن يتجلَّى هذا الفهمُ؟

ثانيًا: فهمُ المسلمين علاقةَ الإنسان باللغة في أبحاثهم ودراساتهم

إنَّ المتأمِّل في تراثِ التفكير اللسانيِّ يدركُ من دون كبير عناءٍ أنّ رجالَه كانوا على يقينٍ من أنّ الإنسانَ يتميَّز عن بقية المخلوقات باللغة. ويمكن أنْ نستنتج ذلك بكلِّ يُسْرٍ من المنطوق القرآنيِّ نفسِهِ فقد زخر كلام الله بهذا المفهوم المخصوص للإنسان: ﴿**الرّحمٰن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان**﴾[19] وقوله تعالى: ﴿**ألمْ نجْعلْ له عينين. ولسانًا وشفتيْن**﴾[20]... فاللغة

---

(12) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، **المُزْهر في علوم اللغة وأنواعها**، شرح وتعليق محمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي (بيروت: المكتبة العصرية، 1986)، ص 8.

(13) جمال الدّين أبو محمد عبد الرّحيم بن حسن (704 ـ 772 هـ/1305 ـ 1370م) فقيه وأصولي شافعي وعالم من علماء العربية.

(14) المصدر نفسه، ص 8.

(15) المصدر نفسه، ص 8.

(16) المسدّي، **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، ص 24.

(17) عبد السّلام المسدِّي، **الفكر العربي والألسنية**، سلسلة الدراسات اللسانيات؛ 4 (تونس: الجامعة التونسية، 1979)، ص 31.

(18) عنوان كتاب مشهور لابن جنِّي، دراسة وتحقيق الدكتور حسن هنداوي.

(19) **القرآن الكريم**، «سورة الرحمن،» الآيات 1 ـ 4.

(20) المصدر نفسه، «سورة البلد،» الآيتان 8 ـ 9.

إذنْ ـ كما فهمها مفكِّرو الإسلام ـ هي الحدُّ الفاصلُ بين الإنسان وبين بقية الموجودات وهي الخاصِّيةُ التي تميِّزه عنها وتسمو به لتبوِّئَه المكانةَ الأرْقى وتجعلَ منه قطبَ رحى الوجودِ ومركز الكون وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿**ولقدْ كرّمْنا بني آدم وحملناهم في البرِّ والبحر ورزقْناهم من الطيِّباتِ وفضَّلْناهم على كثيرٍ ممَّنْ خلقْنا تفْضيلًا**﴾[21]. وتكاد جلُّ التحديدات للإنسان إنْ لم نقُلْ كلّها تدورُ في هذا الحيِّزِ، وهو ما حدا بفخر الدّين الرّازي[22] (543 ـ 606 هـ) عند استنطاقه الآية الكريمةِ: ﴿**وآتيناه الحكمةَ وفصْلَ الخطابِ**﴾[23] إلى الاستطراد قائلًا: «إنّ أجْسامَ هذا العالمِ على ثلاثة أقْسامٍ، أحدها ما تكون خاليةً من الإدْراكِ والشعور وهي **الجماداتُ والنباتاتُ**، وثانيها التي يحصلُ لها إدْراكٌ وشعورٌ ولكنّها لا تقْدِرُ على تعريف غيْرِها الأحْوالَ التي عرفوها في الأكثرِ وهذا القسْمُ هو جملةُ **الحيوان سوى الإنسان**، وثالثها الذي يحصلُ له إدراكٌ وشعورٌ ويحصلُ له قدرةٌ على تعريفِ غيرِه الأحْوالَ المعلومةَ له وذلك هو **الإنسانُ**، و**قدرتُه على تعريف الغير الأحوالَ المعلومةَ عنْده بالنُّطق والخطاب**»[24].

فاشتراك الآدميِّ والبهيمةِ في عنصر الحيوانية عند التّعريف إنّما هو مجرَّدُ اشتراكٍ تفرضهُ مقتضياتُ التَّصْنيفِ المتدرّج في الكائنات، إذ إنّ مصطلحَ الحيوان راجعٌ اشتقاقًا إلى الحياة[25]، وتبعًا لذلك يقوم بالحركة والنّشاط الجسميِّ. لكنَّ استئثارَ الإنسان يعزلُه عن بقية الموجودات. وبناءً على ما تقدَّمَ يكون الكلامُ: «جوهرَ الإنسانية في الإنسان»[26] ومنطلَقَ الانفصال بينهما إذْ: «في الكلام **فضلُ الإنسانِ** عن سائر الحيوانِ **وتكريم الخالق له**»[27]. فإذا سلَّمْنا بأنَّ البُعْدَ اللساني هو البعْدُ الأساسيُّ في إظهار الخصوصية الإنسانية وإبرازها: «فقد تعيَّنَ النّظرُ في ملابسات الإنسان وارتباطه بالكلام منْ وِجْهتيْنِ: كونية الظَّاهرة وتهيُّؤِ الإنسان لها»[28]. ويتمثّل الاستعداد الخِلْقي أوَّلًا في تهيُّؤِ الإنسان بيولوجيًّا إلى أداء الظّاهرة اللغوية وهو حدث التّصْويت والتقطيع

(21) المصدر نفسه، «سورة **الإسراء**،» الآية 70.

(22) فخر الدّين الرّازي (543 ـ 606 هـ) إمام مفسِّر ولد في الرّيّ وتوفي بهراة. وهو متكلِّمٌ فيلسوفٌ واسع المعرفة بعلوم المنقول والمعقول وكان شافعيًّا أشعريًّا وكان غزير الإنتاج بالعربية والفارسية وأشهر كتبه تفسيره الموسوم بـ **مفاتيح الغيب** الذي يُعْرَفُ بـ**التفسير الكبير** وله **معالم أصول الدين**.

(23) «سورة ص،» الآية 20.

(24) فخر الدّين الرّازي، **تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، ط 3 (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1985)، مج 13، ج 26، ص 47.

(25) يقولُ جلَّ وعلا: (**وما هذه الحياةُ الدُّنْيا إلَّا لهْوٌ ولعِبٌ وإنّ الدَّارَ الآخرةَ لهي الحيوان لوْ كانوا يعْلمون**) [**القرآن الكريم**، «سورة العنكبوت،» الآية 64].

(26) المسدّي، **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، ص 47.

(27) المصدر نفسه، ص 47.

(28) المصدر نفسه، ص 48.

وهو ما أطلق عليه ابن جِنّي[29] مصطلحَ «**قابلية النُّفوس**»[30]، ويتمثّل ثانيًا في الاستعداد بالفطرة والمزاج إلى اكتساب اللغة. وقد انتبه التّوحيدي[31] إلى هاتيْن الميزتَيْن وضمَّنهما كتابه **الإمتاع والمؤانسة** في سياق حديثه عن المناظرة التي انعقدت بين متَّى بن يونس[32] وأبي سعيد السيرافي[33]، فالخاصية الأولى تضمَّنتها مقولة: «.. إذا كانت الأغراضُ المعقولةُ والمعاني المُدْرَكَةُ لا يُوصلُ إليها إلَّا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروفِ، أفليْس قدْ لَزِمت الحاجة إلى معرفةِ اللغةِ؟ قال: نعم»[34].

وأمّا الميزة الثّانية والمتمثِّلة بتهيُّؤِ الإنسان لها فتبرزُ في الاستعداد الخِلْقي ـ البيولوجي أوَّلًا، إذْ يتهيَّأُ الإنسانُ لها بالخِلْقةِ والتّرْكيبِ إلى أداءِ ما لا تتمُّ الظّاهرة اللغويةُ إلَّا به وهو حدثُ التصويت والتّقطيع: و«يتمثَّلُ ثانيًا في الاستعدادِ بالفطرة والمزاج في اكتساب اللغة»[35] وهذا ما يفسِّرُ أنّ: «علاقةَ الإنسان باللغة هي علاقةٌ بالطبع والاقتضاء»[36]. وبما أنّ اللغة هي السِّمَةُ التي تميِّزُ الإنسانَ ـ والإنسانُ مدنيٌّ بطبعه ـ فهي إذن القناةُ التي تصِلُ الفردَ بمجتمعه. وقد تنبَّهَ المفكّرون المسلمون إلى هذه الظّاهرة ووقفوا عندها طويلًا ونجِدُ في مقدمتهم حازم القرطاجنّي (ت 684 هـ)[37] الذي قرّرَ أنّ: «.. الكلام أوْلى الأشياء بأنْ يُجْعلَ دليلًا على المعاني التي احتاج النّاس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى معونة بعضهم بعضًا على تحصيل المنافع وإزاحة المضارّ وإلى استفادتهم خصائص الأمور وإفادتها وجب أن يكون المتكلِّمُ يبتغي إذن إفادةَ المخاطَبِ أو الاستفادةَ منه..»[38]. فهذا المقول يُوَضِّحُ بشكل لا لَبْسَ فيه قيمة البُعْدِ اللغويِّ في

---

(29) أبو الفتح عثمان بن جنّي (942 ـ 1002) نحوي بصري من أعلم النُّحَاة بعلمَيْ النّحو والصّرف وكان صديقَ المتنبّي من أشهر مؤلّفاته **الخصائص** و**سرّ صناعة الإعراب** و**كتاب التصريف** و**اللمع في النّحو** و**شرح ديوان المتنبي**.

(30) أبو الفتح عثمان بن جّنّي، **الخصائص**، حققه محمد علي النّجّار، 3 ج (بيروت: دار الهدى للطباعة والنّشر، 1952)، ج 1، ص 239.

(31) أبو حيان علي التوحيدي (310 ـ 414 هـ/ 922 ـ 1023م) فيلسوف متصوّفٌ وأديب بارعٌ وأحدُ الأعلام البارزين في القرن الرّابع للهجرة. كان موسوعيَّ الثقافة متنوّعَ التّأليف من أشهر كتبه **الإشارت الإلهية**؛ **الإمتاع والمؤانسة**؛ **الصّداقة والصّديق**؛ **مثالب الوزيرين**؛ **الهوامل والشوامل**؛ **البصائر والذخائر**، و**المقابسات**.

(32) هو بِشْر متّى بن يونس القنّائي، كان نصرانيًّا عالمًا بالمنطق وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في زمنه، توفِّيَ سنة 328 هـ.

(33) هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي النّحوي، سكن بغداد وتولّى القضاء بها، وكان من أعلم النّاس بنحو البصريين توفي سنة 368 هـ.

(34) علي بن محمد أبو حيان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، صحّحه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزّين (بيروت؛ صيدا: المكتبة العصرية، 1953)، ج 1، ص 111.

(35) المسدي، **التفكير اللساني** ص 49 مع شيء من التصرّف.

(36) المصدر نفسه، ص 49.

(37) هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم القرطاجنّي، كان شاعرًا وأديبًا (608 ـ 684 هـ/1211 ـ 1285م) من أشهر كتبه **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**.

(38) حازم القرطاجنّي، **منهاج البُلُغاء وسراج الأدباء**، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة (تونس: دار الكتب الشرقية، 1986)، ص 344.

حياة المجتمعاتِ إذْ بفضله تتمُّ عمليةُ التّواصُلِ والتفاهم بين الأفرادِ بما أنّهم في حاجة إلى التعاون والتّآزرِ لجلْب المنافعِ ودفْعِ المضارِّ. فاللغةُ إذنْ هي الوشيجةُ المتينةُ التي تصلُ الفرْدَ بمجتمعهِ وهي الأداة التي تمكِّنُهُ من التّعبير عمّا في نفسه، وغايتُه من وراء ذلك إفْهامُ السَّامعِ، وذلك أنّ وجودَ الإنسان متراهِنٌ مع تولُّدِ الحاجاتِ متعذِّر خارج حدود اللغة، وهذا ما ألْجأ الجاحظ إلى القولِ أنَّ: «الحاجةَ إلى بيان الإنسان حاجةٌ دائمةٌ واكدةٌ وراهنةٌ ثابتةٌ»[39].

فإذا سلَّمْنا بأنّ الحاجةَ هي التي ولَّدت الظاهرة اللغوية، فهذا يجُرُّنا إلى القول بأنّ الكلامَ مولِّدٌ للمنفعةِ من حيثُ هو الوسيلةُ لسدِّ الحاجة الفرديةِ والجماعيةِ وهو ما لخَّصه ابن مسكويه (320 ـ 421 هـ)[40] بقوله: «إنّ السببَ الذي احْتِيجَ من أجله إلى الكلام هو أنّ الإنسانَ الواحدَ لمَّا كانَ غيرَ مكتفٍ بنفسِه في حياته ولا بالغ حاجاته في تتمَّةِ بقائه مدّتَه المعلومةَ وزمانَه المُقَدَّرَ المقسومَ احتاج الى استدْعاء ضروراته في مادّة بقائه من غيره ...»[41]. وبمزيد التّعمُّق في استقراء هذا الشّاهدِ نستنْتِجُ أنّ البُعْدَ اللغويَّ هو المحدِّدُ في بقاء النَّوْعِ الإنسانيّ وهو عين ما تفطَّنَ إليه أبن حزم الأندلسي (384 ـ 456هـ)[42] من أنّه: «لا سبيلَ إلى بقاء أحد من النّاس ووجودِه دون كلام»[43]. فإذا افترضْنا انتفاءَ وجودِ المقوِّمِ اللغويِّ في حياة الإنسان ـ وهو مجرّد تصوّر ذهنيٍّ ينبني على التّجريد ـ فإنّ ذلك سيقودُنا حتمًا إلى القوْل بانتفاء الوجود الإنساني. فالبعدُ اللساني هو باعثُ الحركة في الإنسان ليتفاعل مع بني جنسه طالما أنَّ الإنسانَ من دون كلام كالعاجز عن الحركة: «وإنّما الجاهلُ بتأليف الكلام وأساليبه، على مقتضى ملَكَة اللسان إذا حاوَلَ العبارةَ عنْ مقْصودهِ، ولمْ يُحْسِنْ بمثابة المُقْعَدِ الذي يرومُ النّهوضَ ولا يستطيعُهُ لفقْدان القُدْرةِ عليه»[44]، على حدّ تعبير ابن خلدون (732 ـ 808 هـ)[45]، وهذا يجرّنا إلى القول بكلّ يقين أنّ اللغة هي بمنزلة الحدّ الفاصل بين الوجود والعدم.

---

(39) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب الحيوان**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط 3 (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1969)، ج 1، ص 48.

(40) أحمد بن محمّد بن يعقوب مسكويْه (320 ـ 421 هـ/932 ـ 1030م) مؤرّخ بحَّاثة أصله من الرّيّ وأقام بإصفهان، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق ثمّ أولع بالتاريخ والأدب. من أهمّ كتبه: **الهوامل والشوامل؛ تجارب الأمم؛ تهذيب الأخلاق، والفوز الأكبر** ...

(41) علي بن محمد أبو حيان التوحيدي وأحمد بن محمّد بن يعقوب مسكويْه، **الهوامل والشوامل**، تحقيق ونشر أحمد أمين والسيد أحمد صقر (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1951)، ص 7 ـ 8.

(42) علي بن أحمد بن سعيد الظاهري فيلسوف وشاعر ومؤرخ ومتكلم. اعتزل السياسة بعد أن اكتوى بنارها وتفرّغ للتأليف. من أشهر مؤلَّفاته: **الفصل في الملل والأهواء والنّحل؛ طوق الحمامة في الألفة والألّاف؛ جمهرة أنساب العرب، والإحكام في أصول الأحكام**.

(43) علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، **الإحكام في أصول الأحكام**، حقَّقه وراجعه لجنة من العلماء (القاهرة: دار الحديث، 1984)، ج 1، ص 32.

(44) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **المقدّمة**، طبع عبد الكريم وحسن الزينن، ط 2 (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1979)، ص 1111.

(45) أبو زيد ولي الدّين (1332 ـ 1406م) ولد في تونس وعاش فيها ردْحًا من حياته قبل أن يحُلَّ بها مرض الطّاعون الذي أودى بوالديه وبثلّة من أساتذته فيمّم وجهه شطر فاس ولمَّا يتجاوزْ الثامنة عشرة من عمره لِمَا كانت تعجّ به مكتبة جامعة القرويين من كتب. برع في علوم التاريخ وهو مبدع علوم الاقتصاد والاجتماع أو =

ثالثًا: توظّيف هذا الفهم لكشْف أسرار الكلام

من خلال ما تقدّم من مقولات وتحاليل، نستنتجُ أنّ اللغةَ لا يمكن أنْ توجد وتنشأَ إلَّا في كنَف المجتمع وقد تنبّه مفكرونا وفي مقدّمتهم ابن جِنّي (321؟ ـ 392هـ) إلى هذا الجانبِ فقد: «فهموا قانونًا أساسيًّا من قوانين حياة اللغة ونعني به أنّ اللغة لا تكون إلَّا داخل مجتمعٍ ومن ثَمّة يمكن فهمُها باعتبارها ظاهرةً اجتماعية»[46]. ذكر ابن جنّي في «**خصائصه**» في معرِض حديثه عن وظيفة اللغة أنها «**أصوات**» يعبِّرُ بها «**كلّ قوم**» عن «**أغراضهم**». وكلامه في هذا السياق شديد الدِّقَّة والضبط. فاستعماله عبارة «**قوم**» يحمل أكثر من دلالة، فهو لا شكَّ يعني بها المجتمع بتعبيرنا المعاصر، عندما لم تكن هذه العبارة مستعمَلَةً آنذاك. وإشارته في هذا السياق مهمّةٌ، إذ تحيلنا على قانون من قوانين حياة اللغة ونعني بذلك أنّ اللغةَ لا تكون إلا داخل مجتمع ومن ثمّ يمكن فهمُها بوصفها ظاهرةً اجتماعيةً (Phénomène Social/Social Phenomenon) بكلِّ ما يعْنيه ذلك وما يترتَّبُ عنْه من نتائجَ بحثيةٍ. وقد أوْرَد عبده الرّاجحي كلامًا في هذا السياق لقندريس يقول فيه: «في أحضان المجْتمع تكوَّنت اللغةُ. وُجِدت اللغةُ يوْمَ أحَسَّ النَّاسُ بالحاجة إلى التفاهم فيما بيْنهم... فاللغة، وهي الواقعُ الاجتماعيُّ بمعناه الأوْفَى، تنْتجُ من الاحتكاك الاجتماعيِّ، وصارتْ واحدةً من أقْوى العُرَى التي ترْبط الجماعات، وقد دانت بنشوئها إلى وجود احتشاد اجتماعيٍّ»[47]. وهذا يجرُّنا حتمًا إلى فكرة مركزية جِماعُها أنّ اللغةَ تكْتسبُ اكْتسابًا وليْست غريزةً فُطِرَ عليها الإنْسانُ مثل المشي الذي يحصل بمجرّد تصلُّب عظام الطفل عندما يبلغ سنّا محدّدة. وقد وقف ابن خلدون عند هذه النّقطة الفعّالة وأثبتها في **مقدّمته** عندما ذكر: «اعْلمْ أنَّ اللغاتِ كلَّها مَلَكاتٌ (Abilities – Facultés) شبيهةٌ بالصناعةِ، إذْ هي ملكاتٌ في اللسان، للعبارة عن المعاني وجوْدتها وقصورها بحسب تمام المَلَكةِ أوْ نقْصانها ...والملكاتُ لا تحْصُلُ إلَّا بتكْرار الأفْعال لأنَّ الفعلَ يقعُ أوَّلًا وتعودُ منه للذَّاتِ صفةٌ، ثمَّ تتكرَّرُ فتكونُ حالًا. ومعنى الحال أنّها صفةٌ غيرُ راسخةٍ، ثمَّ يزيدُ التّكْرارُ فتكونُ ملَكةً أيْ صفةً راسخةً... يسْمعُ الصّبيُّ استعمالَ المفرداتِ في معانيها فيُلَقَّنُها أوَّلًا، ثمّ يسمعُ التراكيبَ بعدها فيُلقَّنُها كذلك... إلى أنْ يصيرَ ذلك ملَكةً وصِفَةً راسِخةً ويكون كأحدهم»[48]. فهو يُقرِّرُ أنّ حصولَ الملكةِ اللغوية يتوقَّفُ على الممارسة والدُّرْبة وقدْ اهتدت الطّرُقُ الحديثةُ في تدريس اللغات الحيَّة إلى هذه الفكرة المهمّةِ فأقامت التدريب على التمارين التركيبية، ويؤكِّدُ ابن خلدون هذه الفكرة في مكان آخرَ ـ مقتصِرًا على اللغة العربية مثالًا ـ فذهب إلى القول إنّ: «هذه الملَكةَ كما تقدَّمَ إنّما تحصُلُ بممارسة كلام العرب وتكُرُّره على السّمعِ والتّفطُّن لخواصِّ تراكيبِه، وليْستْ تحْصُلُ بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهلُ صناعة البيان فإنّ هذه القوانينَ إنّما تُفِيدُ عِلْمًا بذلك اللسان، ولا تُفيدُ حصولَ الملكةِ بالفعْلِ

= ما عَبَّر عنه بـ«علم العمران البشري» من أشهر كتبه **كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر**... وقد اشتهرت من هذا المؤلَّف خاصة **المقدّمة** التي طبقت شهرتها الآفاق، وله أيضًا كتاب: **التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا وشفاء السّائل وتهذيب المسائل ولباب المحصّل في أصول الدّين**.

(46) عبده الرّاجحي، **فقه اللغة في كتب العربية** (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1979)، ص 72.

(47) قندريس، **اللغة** ص 35، نقلًا عن: المصدر نفسه، ص 72.

(48) ابن خلدون، **المقدّمة**، ص 1071 ـ 1072.

في محلِّها»[49]، وهذا الشّاهدُ تأكيدٌ صريحٌ على ما اهتدتْ إليه علوم اللسان حديثًا من أنّ الملَكة اللغوية لا تحْصُلُ بحذْق القوانين (القواعد) وإنَّما تقومُ في المتكلِّم على السّماع والممارسة والتفطُّن إلى خواصّ التراكيب. وقد قرّر ابن فارس (ت395هـ) ذلك قبل ابن خلدون بقرون أربعة حين أكَّدَ قائلًا في «باب القول في مأخذ اللغة»: «تُؤْخَذُ اللغةُ اعتيادًا كالصّبيِّ العربيِّ يسمعُ أبوَيْه وغيرهما، فهو يأْخُذُ اللغةَ عنْهم على مَرِّ الأوقاتِ. وتُؤْخَذُ تلقُّنًا مِنْ مُلَقِّنٍ. وتؤْخَذُ سماعًا من الرُّواةِ الثِّقاتِ ذوي الصِّدْقِ والأمانةِ، ويُتَّقى المظنونُ»[50].

وتفطَّن مفكّرونا كذلك إلى جانب آخرَ لا يقلُّ قيمة عمّا تقدّم ذكرُه، بل يُعَدُّ على جانب كبيرٍ من الأهمية ويُعَد من أحدث الأبحاث المتّصِلة باللغة في عصرنا الحديث، بما أنّ اللغةَ مجرّدُ نظامٍ من الرّموز الصوتية فكيف يحْصلُ فهْمُ هذه الرُّموز التي هي: «عبارةُ المتكلِّم عن مقصُوده»؟[51]، على حدّ قول ابن خلدون. بعبارة أخرى كيف تدلّ اللغةُ على ما تدلُّ عليه؟ وهذا السؤال يسْلِمنا مباشرةً إلى قضية «علاقة اللغة بالتفكير والفكر» وقد أثار الكثيرُ من علمائنا هذه النقطةَ. فالتّوحيدي يُؤكِّد تأكيدًا جازمًا على ما يجْري قيامُه من صلةٍ وثيقةٍ بين الأبنية النحوية والأبنية الذِّهنية فنجده يقول إنّ: «... وما يُستعارُ للنّحو من المنطق حتّى يتقوَّم أكثر مما يُسْتعار من النحو للمنطق حتّى يصِحَّ ويَسْتَحْكم. فالمنطقُ وزنٌ لعيار العقل، والنحو كيلٌ بصاع اللفظ»[52]. وقد أكّد أبو حيّان في **الإمتاع والمؤانسة** على الصعوبة التي تتخلَّلُ هذَا العملَ حين ذكر: «إنّ الكلامَ على الكلامِ صعبٌ. قال: ولِمَ؟ قلْتُ: لأنّ الكلامَ على الأمور المعتَمَدِ فيها على صُوَرِ الأمور وشكُولِها التي تنقسِمُ بين المعقول وبيْن ما يكون بالحسِّ ممكِنٌ، وفضاءُ هذا متَّسِعٌ والمجالُ [فيه] مختلِفٌ. فأمَّا الكلامُ على الكلام فإنّه يدورُ على نفسه ويلتبِسُ بعضُهُ ببعضِه، ولهذا شقَّ النّحوُ وما أشبهَ النّحو من المنطقِ»[53]. وإذا استبطنَّا هذا القولَ واستنطقْناهُ فإنَّنا نستنتجُ الانعكاسَ الذي يقع داخل الحيِّزِ اللغويِّ بحيْثُ يصبحُ: «الخطابُ موضوعه ومادَّتُه كلاهما الكلامُ»[54]. ولقد بيَّن ابن خلدون أنّ اللغة من النّاحية الوظيفية النّفسية إنّما هي طريقةٌ رمزيةٌ للدِّلالة على ما بالنّفسِ من عقلٍ ووجدانٍ ونزوعٍ فهو يُقرِّرُ قائلًا: «... وتجيءُ الحروفُ متمايِزةً في السّمع وتتركَّبُ منها الكلماتُ الدّالَّةُ على ما في الضمائرِ...»[55].

---

(49) المصدر نفسه، ص 1086.

(50) أبو الحسن أحمد بن فارس، **الصّاحبي**، تحقيق أحمد صقر (القاهرة: مكتبة ومطبعة دار إحياء الكتب العربية، 1977)، ص 48.

(51) ابن خلدون، **المقدّمة**، ص 1056: «اعلمْ أنّ اللغة في المتعارف هي عبارةُ المتكلّم عن مقصوده. وتلك العبارة فعلٌ لسانيٌّ ناشئٌ عن القصدِ بإفادة الكلام».

(52) أبو حيان التوحيدي وأبو سليمان المنطقي، **المقابسات**، تحقيق وتعليق حسن السندوبي (تونس: دار المعارف للطباعة والنشر، 1991)، ص 64.

(53) أبو حيّان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، ج 2 ص 131.

(54) عبد السّلام المسدّي، «بنيوية الشمول في اللسانيات العربية،» **مجلّة الحياة الثقافية** (وزارة الثقافة، تونس)، العدد 6 (1979)، انظر كذلك فصل «الكلام والشمولُ» في كتابه **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، ص 323 ـ 359.

(55) ابن خلدون، **المقدّمة**، ص 1067.

خاتمة

نستخلصُ من خلال ما تقدّمَ، أنّ مفكّري الإسلام كانت لهم نظراتٌ صائبةٌ في مجالِ علم اللسان تكاد تتطابق مع ما توصّلت إليه العلومُ اللغويةُ الحديثةُ. وقد ألْجأهم إلى هذه البحوث خشيتُهم على ضَياع الدّين بعد أنْ خالطتْ العجمةُ لغةَ العربِ الفصيحةَ التي هي لغةُ القرآن والحديث النبويّ الشريف، فلو تمادى الأمرُ لدَرَس الدّينُ بسبب صعوبة فهمه لِتَعذُّر فهم اللسان العربيّ المبين. إلَّا أنّ هذه النظراتِ لم تأتِ مجمّعةً في مؤلَّفات مختصّةٍ وإنّما جاءتْ متفرِّقةً ومبثوثةً في كتبٍ كثيرةٍ أغلبُها لا يمُتُّ إلى الدراسات اللغوية بسببٍ. لقد نظروا إلى العلاقة التي تربطُ الإنسان باللغة فاستنتجوا أنّ البُعْدَ اللغويَّ هو ما يُميِّزُه وهو الحدُّ الذي يفصلُهُ عن بقية الموجودات. واستئثارُ الإنسان بهذه الميزة قادهم إلى التفكير في العلاقة الرّابطة بين أفراد المجتمع، فاهتدَوْا إلى أنّ اللغة هي القناة التي تصلُ الفرْدَ بمجتمعِهِ وهي وسيلةُ التفاهم بينهما، وهي المولِّدُ للمنفعةِ من حيثُ هي الوسيلةُ لسدِّ الحاجةِ الفردية والجماعية. وأحالتْهم هذه النّظرةُ على الإقْرار باستحالة الوجود الإنسانيّ وانتفائه إذا نزعنا عنه البُعْدَ اللغويَّ. كما أنهم انتبهوا إلى أنّ اللغةَ مكتسبةٌ تحصل للإنسان من طريق التدرُّب على ما يسمعه من محيطه، وتفطّنوا أخيرًا إلى قضية خطيرة هي علاقة اللغة بالتفكير.

على أنّ هذه النّظرات تبقى غير ذات جدْوى أوْ فائدةٍ إذا لم تتواصلْ وما لم تُدْرَس اللغةُ العربيةُ دراسةً موضوعيةً علميةً معمّقةً في مراكز أبحاث متخصِّصة تُوَفَّر فيها جميعُ الجهود وتُوَفَّرُ لها كلُّ الإمكانات. وهذه المهمّة مُلْقاةٌ على مختصّي هذا الجيل ـ وبخاصّة بعد أن تبلورتْ عدَّة مفاهيم وتقدّمت الدّراساتُ نتيجةَ الخطوة العملاقة التي خطتها اللسانياتُ وما تتيحه الآلات المساعدة وما يوفِّرُه مجال الإعلامية من إمكانيات ضخمة ـ فيواصلون ما وضع أسلافُهم لبناتِه لأولى وبذلك يتسنّى لهم أن يساهموا في بناء صرح الحضارة الإنسانية ولا يكتفوا بدور المستهلك لما أنتجه الآخرُ في عصرٍ الزخم العلمي، وما ذلك علينا بعزيز لو توفّرت الهمم الصّادقةُ والعزائمُ الصُّلْبةُ □